كتب

في كتابها الصادر حديثاً، تعود الباحثة العُمانية إلى تاريخ العلاقات بين عُمان والدولة العثمانية من جانبَين: العلاقات المباشرة مع إسطنبول والسلطان العثماني، والعلاقة مع الولاة العثمانيّين في الجوار؛ أي ولاة البصرة وبغداد ومصر

تركية بنت حمد الفارسي دولة البوسعيد في جوارها

فصول من المدّ والجزر بين العُمانيّين والعثمانيّين

محمد. م الأرناؤوط

تتشابه عُمان والمغرب في كونهما لم يخضعا للحُكم العثماني المباشر كالبلاد العربية الأخرى، مع اختلاف العلاقة مع إسطنبول من حين إلى آخر. ويتشابه البلدان، أيضاً، بموقعهما المتطرّف والمهمّ؛ إذ إنّ الأُولى تُطلّ على الخليج وبحر عُمان والمحيط الهندي، بينما يُطلّ الثاني على البحر الأبيض المتوسّط والمحيط الأطلسي، وكلاهما يُطلّان على مضيق مهمّ: هرمز بالنسبة إلى الأُولى وجبل طارق بالنسبة إلى الثاني. ومن ناحية أُخرى، كان العدوّ المشترك بينهما (إسبانيا والبرتغال) معنيّاً بالوصول إلى الهند والسيطرة على الطرق البحرية إليها، وهو ما جعل الدولة العثمانية تنشغل أيضاً بمجابهة السفن الإسبانية والبرتغالية التي كانت قد احتلّت بعض أطراف المغرب وعُمان.

وعلى الرغم من خصوصية هذه العلاقة بين المغرب وعُمان والدولة العثمانية، نجد أنّ علاقة الأخيرة مع المغرب حظيت باهتمام بحثي أكبر ممّا هو الأمر بالنسبة إلى العلاقات العُمانية العثمانية، ومن ذلك تنظيم «مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية» ندوةً دولية في مدينة الرباط عام 2009 عن «المغارب وساحل شمال أفريقيا خلال الحُكم العثماني»، ونشَرَ في 2020 مجموعة مهمّة من الوثائق العثمانية التي تتناول العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب في الجزء العاشر «البلاد العربية في الوثائق العثمانية: مسلمو الأندلس وحكومة فاس في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي» من إعداد المؤرّخ فاضل بيات.

ومن هنا، يبدو أنّ الكتاب الذي صدر مؤخّراً عن «دار الآن ناشرون وموزعون» بعنوان «العلاقات العُمانية العثمانية 1744 - 1856» للباحثة العُمانية تركية بنت حمد الفارسي يغطّي جانباً مهمّاً من هذه العلاقات، ويفتح الباب لمزيد من الأبحاث في هذا المجال. ومن الواضح من العنوان أنّ الكتاب (2024) يُغطّي جانباً من تاريخ العلاقات بين عُمان والدولة العثمانية بين سنتَي 1774 و1858، وبالتحديد ذلك الجانب المرتبط بتأسيس دولة البوسعيد بقيادة الإمام أحمد بن سعيد، والذي اتسم بالمدّ والجزر وتعرُّض الدولتين إلى مخاطر عديدة؛ فقد واجهت الدولة العثمانية آنذاك التوسّع الروسي وخسرت الحرب مع روسيا القيصرية، والتي تمخّضت عن توقيع السلطان عبد الحميد الأوّل (1774 - 1789)، على معاهدة كوجوك قينارجة عام 1774، التي تنازلت فيها الدولة العثمانية لأوّل مرّة عن أراض لها يسكنها مسلمون (خانية القرم). ومن ناحية أُخرى، فقد تزامن تأسيس دولة البوسعيد على يد أحمد بن سعيد (1749 - 1783)، وتوسّعها في عمان مع بروز الدولة السعودية الأُولى (1744 - 1818)، ما جعل المواجهة بينهما على الحدود مستمرّةً، وعزّز أكثر العلاقة مع الدولة العثمانية التي دخلت في مواجهة حاسمة مع الدولة السعودية.

وتُنبّه المؤلّفة إلى أنّ مفهوم «العلاقات العُمانية العثمانية» يغطّي جانبَين: يتمثّل الأوّل في العلاقة المباشرة مع إسطنبول والسلطان، والتي تُثبتها مراسلات متبادلة بين السلطان عبد الحميد الأوّل والإمام سعيد بن سلطان، وهو موضوع سنعود إليه. أمّا الثاني، فيتمثّل في العلاقة مع الولاة العثمانيّين في الجوار؛ أي ولاة البصرة وبغداد ومصر. وفي هذا الإطار، خصّصت المؤلّفة الفصل الثاني للعلاقات مع ولاية البصرة، بينما تناولت في الفصل الثالث العلاقة مع ولاية مصر.

دراساتٌ قليلة وموجزَة

تشير الباحثة، في مقدّمتها، إلى قلّة الدراسات في موضوع العلاقات العُمانية العثمانية، مُعتبرةً أنّها، إن وُجدت، فغالباً ما تكون موجزةً جدّاً ولا تُعطي الموضوع اهتماماً كافياً، مضيفةً أنّ الكتاب قد يكون بدايةً لكتابات تاريخية أكثر، بالنظر إلى «وجود العديد من الفجوات في التاريخ العُماني»، وإلى افتقار المكتبة العُمانية للبحوث والدراسات التي توضّح طبيعة تلك العلاقات.

التحالف مع محمّد علي باشا

في هذا السياق، كانت العلاقة مع الوالي مع محمّد علي باشا هي الأهمّ، بعد أن كلّفه السلطان بالقضاء على الدولة السعودية خلال 1811 - 1819، وهو ما جعل العلاقة بين محمّد علي ودولة البوسعيد تتعزّز بحُكم المصالح أو الموقف المشترك/ المعادي للدولة السعودية. فقد كانت الأخيرةُ قد توسّعت شرقاً عبر واحة البريمي إلى أن وصلت قوّاتها إلى رأس الحدّ الذي يفصل بحر العرب عن عُمان، ولذلك جاءت حملة إبراهيم باشا على الدرعية لتُخفّف الضغط على دولة البوسعيد وتفتح المجال للمصالح المتبادلة مع سلطة محمد علي، ومن ذلك استئجار محمد علي عشرين سفينة من مسقط عام 1811 وردّ الإمام سعيد بأنّه «مستعدّ لأي مساعدة تستطيع مسقط تقديمها، وذلك من أجل هدف واحد تشترك فيه عُمان والدولة العثمانية: هزيمة القوّات السعودية» (ص 113). ولذلك لم يكن من المستغرب أن يوجّه الإمام سعيد رسالة تهنئة إلى محمد علي باشا، وأن يردّ عليه محمد علي بالهدايا حين قام الإمام سعيد بالحج عام 1824.

وتَعتبر المؤلّفة أنّ هناك أوجه شبه بين الرجُلَين؛ باعتبارهما «شخصيّتين متشابهتين من حيث القوّة والطموح»؛ فقد مدّ الإمام سيطرته نحو الخليج وحاول السيطرة على البحرين ونجح في التمدّد إلى شرق أفريقيا، حيث أسّس «إمبراطورية عربية» هناك، بينما وسّع محمد علي باشا سيطرته لتشمل السودان والحجاز وبلاد الشام. ومع ذلك كانت هناك محطّات توتّر بين الطرفين، كما عندما استولت قوّات محمد علي باشا على واحة البريمي، ولكن - كما تقول المؤلّفة - كانت الدبلوماسية واضحة: كلّ طرف كان بحاجة إلى الطرف الآخر (ص 118).

في الفصل الرابع، تناولت المؤلّفة العلاقات التجارية والحضارية بين الدولتين، وبالتحديد بعض ما اعتبرته من مظاهر التأثير الحضاري العثماني في عُمان. فموقع عُمان، بموانئها التي كانت تطلّ على بحر العرب وبحر عُمان والخليج، جعل الحركة التجارية تنشط من البصرة إلى جدّة، ومنها عبر البحر الأحمر إلى البحر المتوسّط . و«نتيجةً للعلاقات التجارية ظهرت المؤثّرات الحضارية العثمانية» في قصور البوسعيد ومنها «الحمّامات التركية» ونظام الحريم والألقاب وغير ذلك. وبالنسبة إلى «الحريم»، يُقصد هنا تنامي دور النساء كما حدث في البلاط العثماني قبيل الفترة المذكورة، وبالتحديد تنامي دور والدة السلطان وزوجة السلطان في البلاط وفي الحُكم، حتى أمكن الحديث عن «دولة النساء» في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وترى المؤلّفة مثل ذلك في زوجة الإمام سعيد عزّة بنت سيف «صاحبة النفوذ المطلق داخل قصور السلطان»، والزواج «من بنات وأميرات المناطق المجاورة لتدعيم علاقاتهم وتعزيزها»، وكذلك الزواج من الجواري الأجنبيات (الشركسيات والجورجيات والحبشيات) والصراع بينهن على ولاية العهد كما حدث خلال حُكم الإمام سعيد، حيث كانت ولاية العهد لابنه هلال ثم أُعطيت للابن الأصغر خالد «بسبب حظوة ونفوذ والدته» الجورجية (ص 158).

تعزّزت العلاقة بينهما بحُكم المصالح الخارجية المشتركة

ظهرت المؤثّرات العثمانية في عُمان نتيجةً للعلاقات التجارية

الوثائق العثمانية ومكانتها

ذكرت المؤلّفة في المقدّمة أهمية العلاقات المباشرة بين حُكّام الدولتين، ومن ذلك «رسائل متبادلة بين عبد الحميد الأوّل وأحمد بن سعيد»، وبالتالي أهمية الوثائق العثمانية لكتاب من هذا النوع. ولكن في مسرد الوثائق لم نجد أيّة صورة من هذه الرسائل المتبادلة الأصلية المتبادلة، سواء بالعربية أو العثمانية، وهي مهمّة لأنها تعكس مستوى العلاقة بين الطرفين كما تعكسها الرسائل المتبادلة بين السلاطين العثمانيّين وسلاطين المغرب التي نشرها فاضل بيات في كتابه المذكور. ومن ناحية أُخرى، يبدو أنّ الكتاب دُفع للنشر بعد إصدار «هيئة الوثائق والمحفوظات الوطنية» في عُمان خلال 2023 ثلاثة مجلّدات من «عُمان في الوثائق العثمانية» التي تغطّي العلاقات بين الدولتين خلال 370 سنة. ومن المأمول في طبعة أُخرى للكتاب أن تكون مثل هذه الوثائق موجودة حتى تتّضح الصورة أكثر حول العلاقة بين الدولتين.

(كاتب وأكاديمي كوسوفي سوري)

مشهد من مسقط في رسمٍ يعود إلى عام 1897 (Getty)

نظرة أولى

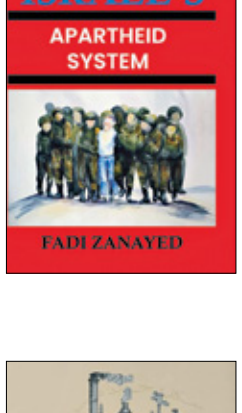

أثار رحيل الشاعر الإسباني رافائيل ألبيرتي عام 1999 جدلاً كبيراً حول حياته التي كانت مسيَّجة بالغموض، لا سيما في السنوات الأخيرة التي قضاها مع زوجته ماريا أسونسيون ماتيو. ربما لهذا السبب قرّرت أسونسيون ماتيو، وهي كاتبة وشاعرة، أن تروي تفاصيل تُكشف لأوّل مرّة حول شخصيته، وذلك في كتابها **حياتي مع ألبيرتي**، الصادر عن دار «ألموزارا» الإسبانية. تُضيء المؤلّفة، في هذا العمل، أبرز أفكار الشاعر الراحل، وعلاقاته الثقافية والاجتماعية، وأيضاً التوتّرات التي رافقت سنواته في المنفى، كما تخصّص مساحة للحديث عن حياتهما المشتركة.

تُلقي الباحثة المصرية فاتن مرسي نظرةً فاحصة على أهمّ المفاهيم النظرية في حقل الأدب المُقارَن، في كتابها **نصوص مُرتحلة: تأمّلات في الأدب المقارن**، الذي يصدر عن «الكتُب خان». يعرض الكتاب قضايا الأدب العالمي الراهنة ويضيء إشكاليات جدلية غير محسومة عبر قراءات نقدية لمجموعة من النصوص تتعلّق بالترحال والتنقّل والهجرة، وعلى رأسها دراسة في كتاب «ألف ليلة وليلة»، حيث تُقدّمه مرسي بوصفه نصّاً ينتمي إلى الأدب المُقارن والأدب العالمي بامتياز، مركّزة على الدور المحوري لشخصية شهرزاد في هذا النص «المُهاجِر».

ملاحظاتٌ على نظام الفصل العنصري الإسرائيلي، عنوان كتاب للباحث والناشط الحقوقي فادي زنايد، صدر بالإنكليزية بشكلٍ مستقلّ. يضيء الكتاب القمع المنهجي والتمييز تحت نظام الفصل العنصري، والظلم الذي يواجهه الفلسطينيّون يومياً، بدءاً من القيود المفروضة على التنقّل إلى هدم المنازل ومصادرة الأراضي وعدم المساواة التي تُرسّخها سياسات الاستيطان الاستعماري، المدعّمة بأحدث المعلومات والأرقام والإحصائيات، كما يستعرض المؤلّف محطّات بارزة من تاريخ نضال الشعب الفلسطيني لا يُمكن من دونها استيعاب جرائم الاحتلال الإسرائيلي وانتهاكاته.

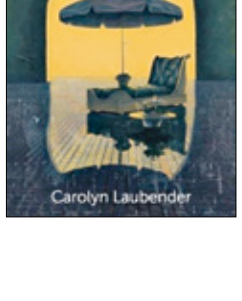

أرّخَ الكاتب المصري محمد أمين حسّونة (1909 - 1956) للسكك الحديدية في بلاده منذ بداية عهدها، في كتابه **مصر والطُّرق الحديدية**، الصادر عن «بيت الحكمة للثقافة» بتقديم وتعليق الباحث خالد عزب. يضيء الكتاب مراحل تطوُّر هذا القطاع وما أحدثه من تغيير نوعي في نمط الحياة، ومن غلاف الكتاب نقرأ: «أوّل خطٍّ أُنشِئَ في مصر هو الخطّ بين القباري في الإسكندرية وكفر الزيّات، وكان خطّاً مُفرداً، حيث صار تركيبُه في سنتين فافتُتح عام 1854، وفي السنة التالية صار افتتاح الخطّ من كفر الزيات إلى طنطا بواسطة استعمال مَعَدِّية على النيل».

عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، صدر كتاب **تكوين الشخصية المتطرّفة: المناهج التربوية نموذجاً** للباحث يوسف إبراهيم سلوم. يُقارب الكتاب الآثار التكوينية في الشخصية المتطرّفة واللحظات التاريخية الفارقة، ومعالم الأصول الأيديولوجية للتنظيمات السَّلَفية الجهادية المستخدَمة في تبرير العُنف، وكيفية انعكاسها على الجانب التربوي ومُخرجاته، من خلال اعتماد وثائق المناهج الدراسية لتنظيم «الدولة الإسلامية»، ومناهج المعسكرات كنموذج تحليلي، بعد استنطاقها واستخراج الفلسفة التربوية منها لفهم كيفية تكوين مجتمع التنظيم.

صدر عن «منشورات جامعة كولومبيا» كتاب **العيادة السياسية.. التحليل النفسي والتغيير الاجتماعي في القرن العشرين** لأستاذة الدراسات النسوية كارولين لوبندر. يجمع الكتاب بين التاريخ والنظرية الاجتماعية النسوية وإنهاء الاستعمار لإعادة صياغة العيادة كمساحة مسيّسة بالضرورة، والتي تحوّلت إلى مختبر لإعادة تصوّر مفاهيم كالعِرق والجنس والطفولة والأمّة والديمقراطية، وشكّلت ممارسةُ التحليل النفسي السريري موقعاً بارزاً في الفكر السياسي الجديد، كما تعكسه نماذج محلِّلين مثل آنا فرويد، وميلاني كلاين، وتوماس ماين، وجون بولبي، وآخرين.

يُحلّل كتاب **العقلانية النهضوية في المنجز الفكري لماجد الغرباوي** للباحث المصري أحمد محمد علي، والصادر عن «دار العارف»، سياق كتابات المفكّر العراقي التي تنتمي إلى نمط الكتابة ما بعد الحداثية. وهي كتابة «لا تتقيّد ببناء محدّد، بل تمضي في كلّ اتجاه بحسب الحاجة والضرورة التي تفرضها المناسبات والقضايا الحياتية، ولكنها مع ذلك تخدم رؤية واحدة بشأن أعباء الحياة بوصفها رسالة لخدمة الإنسان والمجتمع والوطن. ولعل من أهمّ ما يميّزه هو اهتمامه الكبير بفلسفة الدين، بعد أن أعطى مفهوماً جديداً للقداسة تخطّى به المفهوم الدوغمائي المتداول».

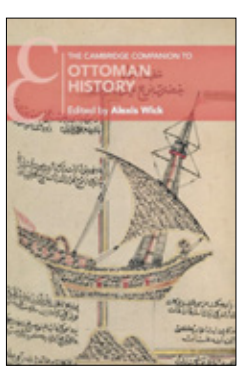

ما أهمّية دراسة التاريخ العثماني؟ وما مصادره المتوفّرة؟ وكيف يُمكن للباحثين البدء في تحديد موقعها وقراءتها وتفسيرها؟ يُقدّم كتاب **رفيق كامبريدج للتاريخ العثماني**، الصادر بالإنكليزية عن منشورات الجامعة البريطانية، إجاباتٍ عديدة عن هذه الأسئلة، ويُبيّن للقرّاء الخطوط العريضة التي يسهل الوصول من خلالها إلى بحث عميق. يتناول الكتاب، الذي حرّره أليكسس ويك من «جامعة كوتش» في إسطنبول، التحدّيات النظرية والمنهجية والعَملية التي يُواجهها المؤرّخون العثمانيون. من المساهمين: ثريّا فاروقي، وغريغور بايكوف، وندى ممتاز، وستيفان وينتر.